عصران فى دار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

هى أسرة واحدة تعيش تحت سقف واحد ، ولكن عصور أفرادها متباعدة ، وثقافاتهم متعددة متفاوتة ، والحضارات التى يمثلونها لا تنفك تتصادم وتحترب فى دارهم . وقد عرفت بعضهم فى لبنان وبقيتهم فى مصر ، وكنت أتمشى يوماً قبل الغروب فى طريق « ضهور الشوير » ، والشوير « ضيعة » كما يسمونها ، أو قرية فى واد يشرف عليه الجبل ، فهذا هو « الضهور » أو « الظهور » ، فلت الى مكان هناك يسمونه « قهوة الحاج الياس » وهى قائمة بين بساتين فاكهة وزهر ، فلمحت فى طريق مَنْ ظننتها واحدة ممن عرفتهن هناك ، فثنيت الخطى اليها ، فاذا هى فتاة لا عهد لى بها ، وليس بنظرى قصر ، ولكنى كنت مطفلاً ، وكانت الشمس قد اصفرت وضعف ضوؤها ، وكان الشجر يحجب وجهها عنى — أعنى الفتاة لا الشمس — فلى العذر إذا أخطأت . وعلى أنه خطأ لم يسؤ وقعه فى نفسى . بهذا أعترف . وكانت جالسة ترسم فأغرانى هذا بها ، فدنوت منها على أطراف أصابعى ، ثم وقفت أتأملها — من وراء ظهرها — وهى مقبلة على اللوح . فلما طال ذلك علىّ ، وهى لا تلتفت وراءها ، تنحنحت ، فأدارت وجهها بسرعة وقالت : « أوه ! » ولم يكن فى وجهها لا ابتسام ولا دهشة ، كأنما كان من المألوف عندها أن تسمع الناس يتنحنحون وراءها وهى ترسم ! .

فقلت وقد أحسست أن فى الفتيات عسراً :

« هل أزعجتك ؟ »

فقالت وهى ماضية فى رسمها وغير ناظرة إلىّ :

« أزعجتنى ؟ ؟ هل سمعتك تقول إنك أزعجتنى ؟ »

وكانت لهجتها واشية باحتقار يحول الأدب دون ظهوره على وجهها ، أو لعل الأصح أن أقول إن فى اللهجة تهكما خفيفاً حملته على محمل الاحتقار ، فحقدتها عليها — فى سرى — غير أنى لم أظهر ذلك لها واكتفيت بأن أقول :

« هذا ما كنت أخشى — فالحمد لله ! »

فمضت فى تخطيطها على اللوح وقالت : « إذا كنت تريد أن تتكلم فاجلس » . فكانت هذه صدمة ثانية . فتلجلجت قليلاً وقلت « أ ... أ ... أجلس ؟ » فقالت وهى مكبة على اللوح « آه .. معذرة .. ثيابك بيضاء نظيفة ، والأرض بليلة . . . مفهوم »

فاجترأت وقلت : « هل تريدين أن تدعيني الى الجلوس ؟ . »

فقالت : « وماذا أصنع بك جالسا أو واقفاً ؟ معذرة ! إن غرورك هو الذى أجرى لسانى بهذا الكلام »

فسألتها وأنا مبهوت : « غرورى ؟ »

فقالت بلا اضطراب : « أعنى غرور الرجال . . . وكنت تستطيع أن تدرك قصدى ولا تحوجني الى الايضاح »

وكنت فى أثناء هذا الحوار لم أبرح مكانى وراءها ، فتحولت حتى صرت أمامها وقلت وفى صوتى نبرة غضب مكظوم :

« هل تستطيعين أن تدعى أن بينى وبينك ثأرا قديماً ؟ »

فأدهشني أنها أجابت ببساطة ومن غير أن ترفع وجهها إلىّ :

« ثأر ؟ أوه لا ! . ولكن ألا ترى أن أمثالك لا خير فيهم لمثلى »

فقلت : « معذرة فانى غير فاهم ! . »

قالت : « بالطبع ! ولست وحدك الذى لا يفهم . . . كلكم هكذا . . . لأنكم تفكرون بعقول معطلة . . . أعني أن أهواءكم تغلبكم وتدفع عقولكم فى مجراها ، وتمنعكم أن تفكروا فى حاجات غيركم مثل تفكيركم فى حاجاتكم . قد يبدو هذا القول غريباً من فتاة مصرية ، لأن الفتاة فى نظركم ليست سوى مطية ... لا تستغرب هذه الصراحة ، فلستم وحدكم كل من تعلموا وذهبوا الى أوربا ورأوا بعيونهم وفكروا بعقولهم ... ماعلينا من هذا ... نعم الفتاة ليست عندكم سوى مطية ... لا تجادل من فضلك ... لا تحاول أن تكذب ... كلا ... لا تقاطعنى ... إنك هنا لتتحكك بى ... هـــذا واضح ... بالطبع ! دعنى أتمم كلامى ، لقد كنت أقول حين هممتَ بمقاطعتى إنكم معشر الرجال تعتقدون أن الفتاة مطية ، وإنها لكذلك ، ولكنها غير ذلك أيضاً ... إعترف بصراحة ... هل خطر لك مرة واحدة أن الفتاة أكثر من مطية ؟ ! »

فخجلت لأنى لم أكن أنتظر أن أسمع هذه المحاضرة ، وأورثتنى الفاجأة اضطراباً فقلت :

« ولكن هل من موجب لهذا الكلام ؟ ؟ إني . . . »

فقاطعتني قائلة « نعم فانك ما جئت إلى هنا إلا وفي أملك أن تقضي دقائق لذيذة مع فتاة ترجو أن تؤاتيك وأن تنيلك دقائق أخرى ألذ منها وأعذب »

فهممت أن أقاطعها ولكنها أومأت إلي فسكت ، واضطجعت هي على الكرسي وقالت :

« لا تكابر . . . واسمع مني ، ولا تعجب إلا إذا كنت غبياً . . لامانع عندي ألبتة أن أمنحك الدقائق اللذيذة لو كنت تستحقها في نظري . . فاني أنا أيضاً أطلب لنفسي دقائق لذيذة وأشتهي أن أتمتع بحياتي وأفوز بنصيبي من لذات الدنيا ، ولكن هناك لذائذ أخرى تعدل هذه وتستبد بالنفس وتغلبها على أهوائها الأخرى ... هذا التصوير مثلاً هو مهنة لأكل العيش إلى حد ما ، ولكنه أيضاً فن يزاول لذاته وبغض النظر عن النافع المادية . . إني حرة . . فقيرة ، نعم ، ولكني أجد الكفاية ، وقد استطعت أن أتعلم أرقى تعليم تسمح به مواردي ، والباقي أحصله باجتهادي .. درست التصوير في انجلترا ثلاث سنوات بينما كنت مبعوثة إليها لأدرس شيئاً آخر ، ولكني لا أتكسب به . نعم أبيع بعض صوري ، ولكني أستخدم ثمنها في إتقان فني . . في تجويد أدائه . . لقد بعدت عن الموضوع جداً . . . على الأقل في نظرك . . ولكن هذا الشرح كان لازماً لأمثالك حتى يستطيع أن يجتنب إساءة الظن حين أسأله . . هل تستطيع أن تكون أنموذجاً لصورة ؟ »

فصحت « إيه ؟ أنمو . . . »

قالت مقاطعة « نعم ، أنموذج لصورة . . إن جسمك ليس معتدلاً ، وقوامك . . . غير حسن . . وهذا ليس غزلاً مقلوباً من فضلك .. ولكن لو أمكن أن أرسمك وأنت عار .. ولكن بالطبع لا تستطيع ... كلا ... لا تستطيع ... لا فائدة ... خسارة ... إن في ذهني صورة تصلح لها ، ولكن الحياء الكاذب .. كلا .. لا فائدة »

فكدت أجن من جرأة هذه الفتاة ، ثم تصورت نفسي واقفاً أمامها — على رجل واحدة ! . وأنا كما خلقني الله فقهقهت ، فصعدت إلي طرفها مستغربة مستفهمة ، فلم أكتمها ما دار في نفسي وتمثل لخاطري ، ثم تعارفنا .

* * *

وفي مصر رأيت أباها ، وهو شيخ في السبعين من عمره ، تخرج في دار العلوم وزاول التدريس حتى أقعده الكبر ، ولكنه لا يزال على ارتفاع سنه نشيطاً . ومن شذوذه أنه لا يقنع بأن ينفي العامية من كلامه ، بل يفرض الكلام بالفصحى حتى على الخدم :

كنت معه يوماً ، وكنا جالسين في حديقة البيت ، فبصر بالخادم ، فصاح به « ليس هكذا ؟ »

فانتفض الخادم ودار حول نفسه ، وقال بلهجة الممتثل لقضاء الله فيه ولا ستبداد هذا المجنون به :

« أفندم ؟ »

قال الشيخ : « ليس هكذا »

فعاد الخادم يسأل « أفندم ؟ »

فقال الشيخ مفسراً : « أقول ليس هكذا . ارفع رأسك وافتح صدرك . ألم أنهك أن تمشي متخلعاً ؟ »

فقال الخادم معترفاً : « أيوه يا افندم ؟ »

فصاح به الشيخ : « قل نعم يا جاهل ! أو بلى »

فاستغرب الخادم وسأل بلهجة المنكر : « بلى ؟ »

قال الشيخ : « بلى »

فعاد الخادم يسأل : « بلى ؟ »

قال : « نعم بلى ! ماذا تظنني أقول ؟

قال الخادم : « بلي ! »

قال الشيخ : « إذن قلها »

فحاول الخادم أن يعيدها ولكنه نسيها فجعل يقول : « أ . . أ ... ب ... ب ... وحك رأسه .

فأنكر الشيخ ضعف ذاكرته وقال : « نسيت بسرعة ؟ »

فتذكر الخادم وقال : « أ ... بلى »

فعاد الشيخ يصيح : « مدهش ! قل « لا » في هذا الموضع »

فظن المسكين أن عليه أن يردد كل ما يسمع فقال : « لا في هذا الموضع »

فضجر الشيخ وصاح : « ماذا كنت قبل أن تجيء إلى هنا ؟ بيغاء ؟ »

فكر الخادم مسرعاً إلى الأولى استرضاء للشيخ وقال « أ ... أ ... بلى »

فيئس الشيخ وقال وهو ينظر إلي « لا فائدة ... لا فائدة ! »

وحسب الخادم أن الكلام له فقال : « بلى . »

فصاح الشيخ . «اذهب ... اذهب ... وارم نفسك فى بئر . »

فظن المسكين أنه يحسن به أن يقول شيئاً آخر فقال :

« لا فى هذا الوضع »

* * *

هذه هى الأسرة — أو على الأصح ، هذا هو الأب ، وتلك فتاته ، وهما يعيشان فى بيت واحد تحت سقف واحد ، ولا أدرى أيشعران أم لا يشعران بما بينهما من مسافة الزمن التى تحسب بالقرون ، ولكن الذى أدريه أنهما على تباعد عصريهما سعيدان . وقد ساعد على ذلك وأتاحه سعة أفق الفتاة وما تمتاز به الشيخوخة من الحلم والجنوح إلى التسامح ، أو الضعف إذا شئت . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

نبتـــون

للأستاذ راشد رستم

فى ناحية من نواحى الحديقة المنسقة الواسعة ، أنشأوا بحيرة صغيرة صافية ، وحول هذه البحيرة الساكنة قامت الأشجار عظيمة السيقان ، كثيرة الأغصان — تباعدت فى الأرض جذوعها ، والتقت فى السماء فروعها — دوحة خضراء ، نادرة المثال فى هذا النوع من التنسيق والجمال ، اتخذت منها الأطيار الوديعة أراجيحها اللينة ، وأقامت فيها أعشاشها الآمنة .

وفى وسط هذه البحيرة الصغيرة أقاموا تمثالاً كبيراً لإله البحر الأعظم : نبتون[1] بن زحل . . .

أقاموه فى هذا المكان الهادئ ، واقفاً يحمل فى يمناه صولجانه مثلث الأسنان ، ويمد يسراه فى اطمئنان مشيراً الى الماء الخاضع فى هدوء عند قدميه ، وكأنه يقول : هذا ملكى ، هذا عرشى !

* * *

أى نبتون ! مزعزع ركن الثرى[1]

ما كنا لنجهل ملكك ، أو نسلبك عرشك .

رمز لظلمات ذلك الخيال المضطرب لما رآك أجدادنا المتقدمون ؛ ولذلك الرعب الآخذ بنفوسهم لما تركوك الى برهم ؛ ولذلك التعدى ، وقد جهلوه منك ، عند ما حاولت أن تصل اليهم بمدك ؛ ولذلك الفشل ، وقد تمنوه لك ، لما عدت عنهم خائباً بجزرك .

على أنك لا تزال تطغى ولا ترحم ، وستهشم ما تصل اليه يدك فى غدك ، كما كنت تفعل فى أمسك ، وإن كنت تحوى الدر ، وتؤدى خيراً ، فانك لا تدرى ان هذا خير وذاك در

* * *

إن هذه البحيرة الصغيرة الهادئة لا تستحق من أهل السلام وأهل الجمال ، أن تقوم أنت وسطها على جزيرة لا تكاد تفى بموطئ قدميك ، تقوم فيها بثقيل هيئتك ، وكالح وجهك وخشن شكلك . وهنالك فى المحيط الواسع جزائر عظمى ، خذها مسكناً ومقيلا ، فعندها تجد لخشونتك مجالاً ، ولوحشيتك ميداناً ، وهنالك حيث أهلها وسكانها أقرب طباعاً لما يرضيك ، فتتخذهم أعواناً أو عبيداً أو خلقاً جديداً ، تسخرهم فيما تشاء من إغراق وإغداق ، وتراهم يرتاحون لجوارك ويحافظون على سلطانك ، وهم يرون فى عتوك وجبروتك حاميهم الذى لولاه لكانوا فى الأرض أغناماً لسباعها ، أو أسلاباً لناسها .

* * *

أى نبتون !

تضيع بهجة هذا المكان ، وتذهب وداعة هذه البحيرة ، ما دمت قائماً فيها برمزك هذا الخشن .

وكأنى بصاحب المكان فظاً غليظ الفؤاد ، إذ يجعل جباراً يداعب ضعيف الجناب ! أى ضعف فى الذوق ! وأى خشونة فى

---

(١) إله البحار . نبتون Neptune عند الرومان يقابل فوسيذ Poseidon عند اليونان

(١) « مزعزع ركن الثرى » لقب من ألقاب فوسيذ ، جاء فى الالياذة ترجمة البستانى

وكاد العدى يحرزون الظفر ونوسيذ فيهم يهيج الزمر
فان مزعزع ركن الثرى لنصرتهم بقواه انبرى

الطباع أشد من أن يقيم النسق رمزاً للخشونة الواضحة ، والقسوة المتجددة في السكان الساكن ، ذي الروح الوديعة ، والجو الهادىء . . .

* * *

كأني بهذا النسق ، وقد أقامك بين هدوء المكان وبهجته ، بل وقد حبسك في هذا القفص الرطب . كأني به يستهزىء من قوتك ، ويستنزل من شأنك ، فيقيم الرمز الثقيل في بحيرة صغيرة ، تكاد تكون نقطة من بحرك .

* * *

أم أن هذا النسق حكيم بصير ! أراد تغليب صفاتك القاسية على ميزات المكان اللينة ، فيقول للناس بذلك : وهم وقوف عند البحيرة الساكنة المستسلمة — يقول : أحقاً أيها الناس أرباب العواطف ، أحقاً تشعرون بجمال هذا المكان ووداعته ، وها هو ذا تمثال طاغية يذكركم بأمواج كالجبال ، وطباع كالبحار ، ودخيلة لا أمان لها ؟ أتظنون أن طائر الرحمة والرضا ، يأوي الى القلوب ، وهو يرى رمز القسوة والحماقة قائماً مائلاً ؟

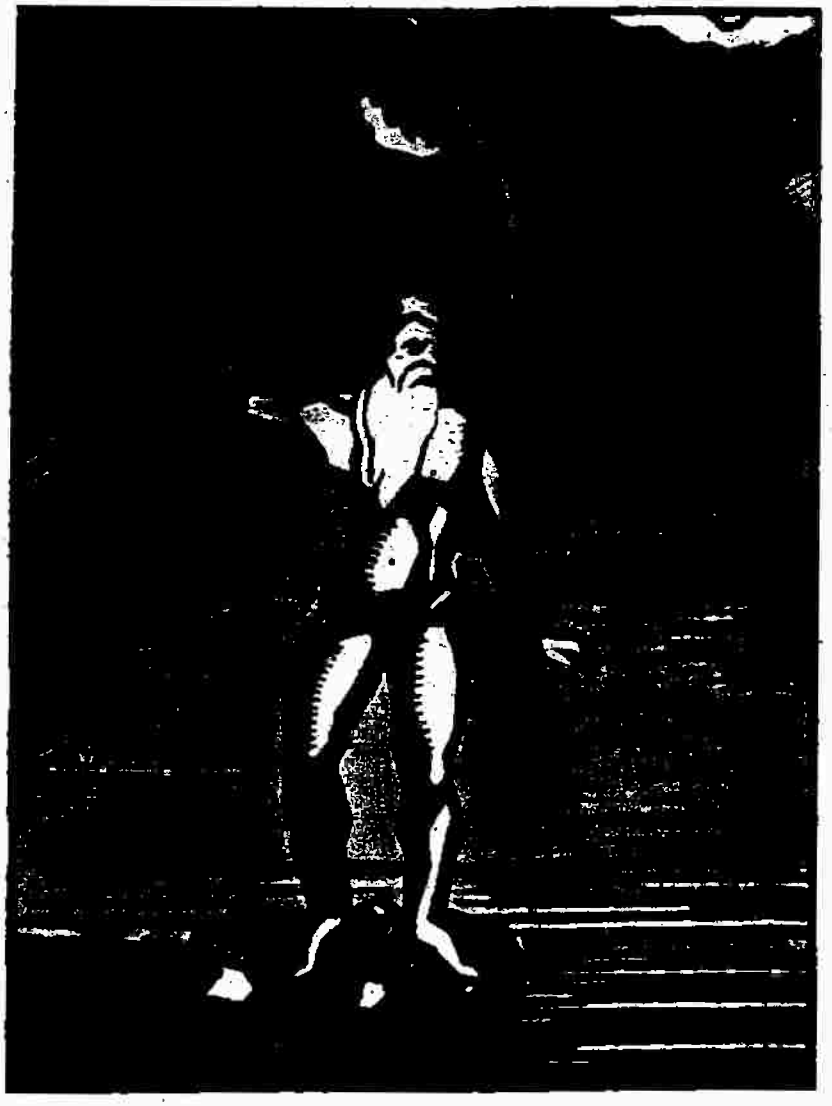

نبتون في البحيرة — تصوير الأستاذ محمد رفعت

أتظنون أيها الفنانون أن في هذا العالم جمالاً صافياً خالياً ؟ جمالا للجمال . . .

* * *

لا أدري حقيقة ما يقصد صاحب المكان ، ولكن خطأ باسادة أن تقيموا هذا الرمز الخشن في هذه الطبيعة الناعمة . إن من جمال النفس أن تجمع بين الماء والخضرة «والتمثال» الحسن

وإن الذي يأتي الى هذا المكان الهادىء ، لا يقيم قليلا حتى يحسه تيار قاتم من روح هذا الجبار العتيق . يشعر وسط هذا النعيم الأخضر بلفحات من جحيم الحياة القاسية .

* * *

فياحراس المكان ، وحفظة السلام ، ويا أهل الجمال ، أزيلوا هذا الرمز الخشن ، وردوه الى حيث تتناسق صفاته وقسوة الطبيعة فتكونون قد صنعتم جميلا ، وأرضيتم أهل الخيال وأهل الحقيقة .

« حديقة انطونيادس »

اسكندرية

راشد رستم